كنوز هيكل ادب

Trésors du temple d'Adab.

اعظم مصدر لهذه الانباء كتاب « بسمايا أو مدينة ادب المفقودة » لصاحبه الدكتور جس بنكس النقاب الاميركي وبعض كتب انكليزية اثرية .

كان في حروب العصور القديمة يفتك بالشعب المغلوب فتك ذريع ، فيقتل الرجال وتسبى النساء وتهتك العذارى وتذبح الشيوخ والاطفال بدون رحمة وتدك القلاع والاسوار وتهدم الهياكل والقصور وتقلع المباني والدور بعد سلب ما فيها من الاحجار الكريمة والذهب والفضة والاثاث النفيس والتحف النادرة .

وقد حدث لمدينة ادب ما حدث لغيرها من المدن الكبيرة التي دكت اسسها الى الحضيض فاصبحت قاعاً صفصفاً بعد ان استأصل العدو من ربوعها الحضارة والعمران فان آثار الدمار والخراب لا تزال ظاهرة كل الظهور في اطراف هذه العاصمة العظيمة فقد عثر المنقبون في هيكلها الكبير على تماثيل مبتورة الرؤوس مهشمة الاعضاء وعلى بضعة آلاف شقفة وشظية لاوان حجرية وصلصالية وخزفية وكلها تنبئنا بان الجيش المنتصر لما استولى على هذه المدينة اخذ يسلب ما في قصورها وهياكلها ودورها من الجواهر واللآلىء بعد ان مثل بملكها وامرائها وقوادها وابطالها شر تمثيل واغتال كهنتها ورؤساءها واستباح دماء الضعفاء العاجزين عن مقاومته .

كانت العادة قديماً في ديار شمر ان تصف على احد اطراف قاعدة الهيكل تماثيل الملوك والملكات وانصاب آلهة المدينة المقامة لحراستها من الطوارئ والنوائب فكان من اول واجبات الجيش الظافر ان يستأصل تلك الآلهة بقطع رؤوسها وبتر اذرعها وانزالها من فوق قواعدها اعتقاداً منه ان ذلك مما يزيل عنها قوة الالوهية التي فيها ، ويحط من عظمتها وجبروتها ، وبعد ان يتم لهم قطع اعناق الآلهة والملوك يقبلون على الهيكل فينزعون صفائح الذهب الملصق على جدرانه ويجمعون الآنية الفضية والنحاسية والاوعية المصنوعة من الجزع والهيصمي واللازورد وسائر ضروب الاحجار الكريمة فيحملونها الى ديارهم

علامة للظفر والانتصار على عدوهم الازرق باستيلائهم على تحف هياكله المقدسة ومجوهراته كما حدث للعبرانيين بعد ذلك بقرون. فان نبوكد نصر الملك العظيم لما قهر الامة الاسرائيلية حمل آنيتهم المقدسة المصنوعة من الذهب والفضة من هيكل اورشليم الى بلاد بابل وقد خف لاستقباله الكهنة وشيوخ المدينة مستبشرين متهللين بفوزه المبين

اما المحفورات والاواني الخزفية والمصابيح والقناديل وما يضارعها من ادوات الزينة التي تحطمت كسراً عديدة حينما هجم الجيش الغالب على الهيكل للسلب والنهب ؛ ولم تكن تصلح لشيء ما فالقيت في النفايات وطرحت في الزوايا ومنها دفن في انقاض المباني فشيدت فوقها الاسس وقامت عليها العمارات ولم يحفل بها لانها عدت في ذلك الحين من سقط الديار . فتلك العروض التي نبذها الفاتحون نبذ النواة ورموا بها عرض الحائط كشيء خسيس تافه أصبح في نظر الاثريين لا نظير له، بل لا يقاس بثمن لانها وقفتهم على حياة ابناء تلك القرون وانبأتهم باساليب عيشهم وصور عباداتهم وفنون حروبهم وضروب شن غاراتهم .

ان عثور المنقبين على تمثال « دا او دو » بين انقاض قاعدة هيكل اور انجور وعلى قطع تماثيل اخرى وشظايا اوان حجرية . (وقد وجدت مبعثرة تحت طبقات الارض) تثبت قولنا كل الاثبات وتؤيد ما كتبه رجال التحقيق والتدقيق في مصنفاتهم وخلاصة قولهم : ان الامة المغلوبة على امرها كانت تسام الذل والمسكنة وتمسي صاغرة لاحول لها ولا طول، فينزع من هياكلها وقصور ملوكها كل التحف والآثار النفيسة قسراً .

اني رأيت اولا ان ابحث في التماثيل التي زينت هياكل ادب لان اهميتها في نظر الباحثين تفوق سائر التحف ، ومنها تمثال الملك « دا او دو » اذ ان منزلته عظيمة عند الاثريين . وقد قال بعضهم انه اقدم تمثال في العالم وعليه سافرد له مقالا قائماً برأسه وانشره على صفحات هذه المجلة في فرصة اخرى .

لقد عثر المنقبون على رؤوس تماثيل واذرع واقدام وملابس ليست من الهيكل فقط ، بل من جميع اطراف خرائب بسمى ، فبعد ان اتموا جمعها واكملوا تنسيقها الفوا ان حجمها لم يكن واحداً فبينها الصغير والمتوسط والكبير ، ومنها

اكبر من تمثال « دا او دو » وكان معظمها مصنوعاً من حجر يشبه حجر الرخام الابيض ، وبعضها كان مصنوعاً من الهيصمي ومن المستماز ، وقد وجد الاثريون ان سبعة تماثيل كانت من طراز وعصر تمثال الملك « دا او دو » وثلاثة من رؤوس التماثيل كانت صحيحة ، وهي سالمة من التشويه والتمثيل بها ، غير ان بعض التماثيل كانت ناقصة الاعضاء ، فلو اهتم النقابون اهتماماً صادقاً بالحفر والتنقيب لكانوا عثروا على القطع المفقودة واعادوا تلك التماثيل صحيحة كما كانت في اول امرها بهيئتها ومنظرها .

كشف النقابون اكبر رأس تمثال بالقرب من سطح احدور قائم الى جنوبي الرابية السادسة وقد حمل من الهيكل والقي هناك وهو من نوع تمثال الملك « دا او دو » ، ومن حجمه يبد ان حجره ابيض مرن ، وقد تشوه منظره على اثر القسائه بقوة على الارض وسحقه كرهاً له ، فاعلى رأس التمثال مكسور ، وكان وجهه عريضاً بصورة خارقة للعادة ، وانفه منبسطاً ، ومحاجر عينيه واسعة جداً ويعلوها اثناء ومطاو فارغة ، وقد ازيلت تلك المادة التي كانت تركب فتمثل الحواجب ، ويظهر ان احدى المقلتين قلعت عمداً . هذا وان اغلب رؤوس تماثيل الشمريين مكتشفة ، بيد ان على هذا التمثال أثناءاً قليلة الغور متوازية سائرة من طرفي الرأس الى اعلاه ، وهي تمثل شعراً منسدلا على الكتفين .

وعثر الحفارون على رأس تمثال اصغر من الاول ، وعلى هامته شعر طويل منسدل على المنكبين بصورة ضفائر ، وقد كشفوا رأس هـذا التمثال مع رأس تمثال الملك « دا او دو » بالقرب من الزاوية الشمالية القائمة الى قاعدة الهيكل وكان علوه سبعة سنتيمترات في عرض ستة سنتيمترات ونصف سنتيمتر ، ويلوح للناظر انه رأس امرأة ، بيد ان المحققين من الاثريين ذهبوا الى انه رأس تمثال رجل وهو منحوت من حجر رخو ، ولم يطرأ عليه ما يشوه رونقه ، ويذهب بحسن تقاطيعه ، على ان مادة الترصيع التي مثلت الحاجبين والمقلتين قد ازيلت .

كان الرأس الثالث اصغر من الرأسين المتقدمين ، وحجمه لا يزيد على حجم برتقالة ، وهو مستدير ، ونوعه وهيئته يشبهان رؤوس التماثيل التي اكتشفت في انقاض المدن الشمرية ، ولم يصبه ادنى عطب ، وقد حفظ رونقه من التشويه .

لان الحجر الابيض الذي نحت منه كان اصلب واشد من غيره . وقد جدع أنفه وصلحت اطراف اذنه . وكان وجهه املس ورأسه اصلع . وهو يشبه تماثيل رؤوس الشمريين ، غير ان نقر الحواجب ومحاجر العينين كانت فارغة .

كانت شظايا رؤوس التماثيل الاخرى مشوهة تشويهاً عظيماً . ومقطعة قطعاً يصعب تلفيقها وتركيبها بحيث لاينطبق عليها وصف كاتب . وعندي احسن وصف لها عرض رسومها على نظر المطالع لتثبت صورها في ذهنه . فمنها ما كان مكسوراً كسراً عديدة يصعب تركيبها ، ومنها ما كان يظهر طرفاً من الوجه الايمن ، ومنها كان يبين منه الطرف الاعلى من الاذن اليسرى ، ومنها كان يشاهد منه قحف رأس يمثل شعره خطوطاً متعرجة تشبه الموج . وكانت هذه احسن واكبر رؤوس التماثيل المحطمة التي عثر عليها المنقبون . اما سواها فلا تستحق الذكر لانها كانت كسراً صغيراً من الحجر المحطم بالمطارق والفؤوس . وقد كان بينها قطعة من قدم محفورة حفراً بديعاً وهي واقفة على قاعدة عمود . وايضاً شظية طرف من العضد اليمنى مع الكتف مصنوعة من الهيصمي وفيها كتابة تكاد ان تكون آثارها طامسة لطول عهدها .

إن معظم هذه الرؤوس كان متماثلا . بيد ان احدها كان يختلف في شكله اختلافاً عظيماً ، ويعد من ابدع وانفس الآثار التي وجدت في الانقاض ، وقد اكتشف هذا الاثر احد رؤساء الفعلة بينما كان يزيل النفايات من غرفة صغيرة تبعد ثمانية امتار عن الزاوية الغربية من برج الهيكل . وهنا عثر ايضاً على قطعة من اناء مثلم مصنوع من حجر ازرق وفيه بقايا اطراف كتابة لثلاثة اسطر .

كان رأس ذلك التمثال مصنوعاً من الهيصمي الابيض الناصع . وكان طوله من جبهته الى طرف لحيته عشرة سنتيمترات . وعلى رأسه غطاء ووجهه نحيف ذو أسل أي ملتح . وانفه طويل . وهيئته تدل على انه سامي النجار . وهو لايشبه بوجه من الوجوه الرؤوس الشمرية . وكانت مقلتاه من العاج . وقد الصقتا في محجريها بالقار الصلب . ولما كشفتا للنور سقطتا . لان القار تكسر كسراً عديدة وقد اعادهما النقاب الاميركي (جمس بنكس) الى موضعيهما والصقهما بغراء الزجاج . بيد ان بؤبؤي العينين كانا مفقودين . وقد بالغ النقابون في البحث عنهما

بين تلك الانقاض ولكن بلا جدوى . اذ يحتمل انهما كانا مصنوعين من حجر كريم نادر الوجود ، وقد قلعا حينما نهبت كنوز الهيكل . وقد اكتشف في الهيكل صور حيوانات مصنوعة من الهيصمي ، وعيونها مرصعة بالحجر اللازوردي فيغلب على الظن ان ذينك البؤبؤين كانا من ذلك الحجر الازرق .

ان من يقابل هذا الرأس بالرؤوس الاخرى ، فمن اول وهلة يرى انه يمثل رجلا من سلالة غريبة ، ومما لاريب فيه انه من عنصر سامي يرتقي الى عصر سرجون الاول او الى الفاتحين الساميين الاشداء الذين اجتاحوا هذه البلاد واستولوا على المدينة ودمروا هيكلها ونهبوا ما فيه من الكنوز النفيسة . وهذا الرأس يمثل اقدم تمثال لملك سامي عرف حتى اليوم .

وقد كشف النقابون تمثالا صغيراً منحوتاً من الحجر الابيض ارتفاعه ثمانية سنتيمترات ونصف سنتيمتر ، وهو يمثل صورة آلهة جالسة ، وهذه الآلهة كان مقامها الاول في الهيكل ، على انها وجدت ملقاة تحت وجه الارض بنحو متر ونصف متر في الرابية الثالثة بين انقاض المنازل القائمة في محلة الساميين(١) ولهذه الآلهة شعر طويل ، ويداها مضمومتان ، ورداؤها يشبه تنورة ذات طيات متعددة ، وهي جالسة على قاعدة عمود منخفض . وقد عثر المنقبون على جملة تماثيل صغيرة من الخزف لهذه المعبودة القائمة في اطراف عديدة من الانقاض وكلها تمثل انزهرسج الهة ذلك المحل .

كان ردم الهيكل القديم ومحل النفايات اعظم مكتشفات « بسمى » اهمية في عالم الآثار . لان الكهنة كانوا يلقون هناك الاواني المحطمة والمصابيح المكسرة وسائر ادوات زينة معبدهم التي لم تكن تفيدهم شيئاً في اجراء شعائرهم ومراسيم دينهم . وقد وجدت هذه اللقى في طرف الشمال الغربي من دكة الهيكل في الزاوية المنعطفة اي الجانحة الى السهل . وكان هذا الاكتشاف نبأ ، فبينما كان احد الفعلة يزيل التراب المتلبد والاوساخ المتراكمة من اساس الدكة لكي يقاس ارتفاعها اذ عثر على شظية من اناء حجري ، ثم اخرى فاخرى ، وفي لحظة كشف بقعة مملوءة من شظيات وشقف وقطع من آنية مختلفة الاشكال والانواع ، وفي نهاية ذلك النهار نقل بضع سلال مملوءة قطع آنية مصنوعة من الهيصمي والجزع وحجر

١) في مدينة ادب محلات عديدة ومنها محلة اشتهرت بهذا الاسم وسأبحث عنها في جزء آخر من هذه المجلة ان اتسع لي فيها المكان .

البرفير والرخام وغيرها .

كان معظم تلك الشظايا بسيطاً وكثير منها منقوشاً وبينها عدد قليل مكتوب وكان عمق خزانة الردم نحو قدمين ، وهي تمتد الى قاعدة الهيكل ؛ وهذه الخزانة حوت قطع آنية من هيئات واشكال شتى منحوتة من احجار متنوعة . فبعضها كان من الهيصمي وغيرها من حجر البرفير واخرى من الجزع ، ومنها من حجر البلاط والرمل والرخام والحجر المسمى بالصلبي . فكل شظايا هذه الاواني كانت مصقولة ، بيد ان منها ما هو منقوش نقشاً بسيطاً ، وبعضها مزينة ومزخرفة زخرفة بديعة برسوم رجال وحيوانات ، وقليل منها كان مرصعاً بالعاج وباحجار لامعة براقة ، واخرى كان مكتوباً عليها اسم الملك او الهيكل ، ومما يؤسف منه ان اغلب تلك الاواني كان محطماً ، غير ان بعض المصابيح كانت صحيحة . وقد بذل النقابون غاية جهدهم في غسل وتنظيف وازالة التراب المتلبد ، وحك ملح البارود (الشورة) منها . ثم جلاء تلك الاواني وتركيب قطعها معاً لاعادة رونقها وبهائها الاولين .

كان من السهل تعيين عصر خزانة ردم الهيكل لانه وجد بين النفايات قطع من الآجر المسنم . واسماء الملوك المسطورة على بعض تلك الآنية لم تكن معروفة ، وصور حروف الكتابة وقطع الآجر تنبىء بان الزاوية الصغيرة القائمة في السهل المنعطف لم تكن قد اصبحت خزانة الردم قبل عصر سرجون وعصر الآجر المربع .

والامر الذي لم يجزم بصحة جوابه علماء الآثار هو من اين احضر سكان السهل الفريلي الخالي من الحجر مواد تلك الاواني الحجرية البديعة المختلفة الاشكال والانواع ، فقد صرح الملك جوديا ان المستماز الذي صنعت منه تماثيل «ادب» جلبه من مجان . ولعلها شبه جزيرة سينا ، فان الرحالين الذين قطعوا السهل العربي المرتفع ، أو تبعوا مجرى الفرات أو رحلوا الى جبال ارمينية وحطوا رحالهم في بلاد فارس ، وجدوا في هذه المواطن ضروباً واشكالاً متعددة من الحجر .

هذا وان سرجون الاول سار بجحافله الى البحر المتوسط ، وهجم بجيوشه الجرارة على بلاد جبلية ، فحمل شيئاً كثيراً من حجارها الكريمة . ونحت منها تماثيل وآنية كثيرة . واعراب العراق اليوم النازلون في البوادي البعيدة عن العمران يقطعون حجاراً عظيمة من الجبال الكثيرة المنبثة حول مكة لينحتوا منها هواوين واجراناً لسحق البن وطحنه .

فيظهر من هذا ان قدماء هذه الديار لم يبتعدوا كثيراً في طلب الاحجار . ففي منطقة الفرات بالقرب من الدير هضبة من الحجر الابيض الرخو الشبيه بالرخام وفي الصحراء الواقعة في اطراف حائل صخور كثيرة من المستماز ، وفي الجبال القائمة في شمال وشرق العراق انواع مختلفة من الحجر الذي يضارع حجر تلك الاواني كل المضارعة ويمثلها تمثيلا صادقاً .

ان المسئلة التي حيرت عقول علماء الاشورية هي جواب (كيف استطاع قدماء هذه الديار ان يصوروا آنيتهم ويشكلوها باشكال متنوعة ؟) فان اغلب الاواني كانت مستديرة ومنها مستطيلة ومربعة ومقعرة . هذا وانحناء الدائرة المناسب كل المناسبة يدل على ان عمل الاناء تم بواسطة المخرطة ، وقد اتخذت هذه المخرطة في صناعة اسطوانات الخواتم ايضاً .

لكن حجر الآنية المستديرة مصقولا صقلا نعما بحيث لم يبق للمخرطة اثر فيه ، بيد ان المصابيح الصدفية لا تزال آثار الازميل ظاهرة فيها برغم الصقل المجود وكانت الادوات القاطعة من النحاس ، لان الشبه والحديد لم يكونا معروفين في ذلك الحين ، وعليه فقد استعمل النحاس لقطع اصلب الاحجار وامتنها .

من اين جاء الشمريون باشكال آنيتهم البديعة الى هذه الاقطار ؟ فهذا سؤال ليس بسهل ان يجيب عنه الاثريون جواباً شافياً ، فقد ظهر لهم من تتبعهم آثار الشمريين . ان هذا الشعب قدم العراق وهو حامل في حقائبه بذور حضارة قديمة من بلاد مجهولة ، واخذ ينشر الفن والعلم والصناعة التي زاولها في ديارة الاصلية حتى عم انتشارها . واخذ السكان الاولون يقلدونهم ويحاكونهم محاكاة عجيبة ادت على توالي السنين الى اتحادهم بالتحالف والتعاضد ، ثم بالاقتران والمصاهرة حتى اصبحوا امة واحدة .

رزوق عيسى